

## الضَّوَارِي

تقولُ العرب: ضرى بالشيء وضرى عليه؛ إذا أولع به واعتاده. وكذلك يقولون: ضراه به وضراه عليه. فالضاري من الجوارح والكلاب، المدرب على الصيد. والضاري من السباع، المولع بأكل اللحم. والضاري من المشية، المعتاد رعى زروع الناس.

والعرب تتصرف في هذه المادة على مثالين: أحدهما، بجعل الفعل من باب فرح يفرح فرحاً، فتقول: ضرى يَضرى ضرى؛ وثانيهما بجعل الفعل من باب سها يسمو سمواً، فتقول: ضرا يَضرو ضراً. ومنه قولهم: ضرا العِرق فهو ضارٌ، يَعنون أنه بدا منه الدم.

وفي الحديث الشريف: «إن للإسلام ضراوة»؛ يعنى أن له ولعاً به عند معتقيه حتى لا يصبروا عنه. وفي حديث عمر - رضى الله تعالى عنه - : «إن للحم ضراوة كضراوة الخمر» معناه أن اللحم له عادة طلابة لأكله كعادة الخمر مع شاربها، إذ كان من يعتاد شرب الخمر، يسرف في النفقة حرصاً عليها وطلباً لها، وكذلك من يعتاد أكل اللحم، يسرف في النفقة أيضاً حرصاً عليه وطلباً له، فيدخل بذلك في باب الإسراف الذى تنهى الشريعة عنه، حتى المتوضئ يُكره له أن يسرف في الماء ولو كان يتوضأ من بحر أو نهر.

الأسد:

ليس إجماعاً عندهم أن الأسد مما يقبل التضرية، وإن كانوا يذكرون أن

قناصًا سورانيًا<sup>(١١)</sup> - من أهل (سورا) وهي موضع بالعراق - بلغ من حذقه أنه ضرى أسدًا حتى اصطاد به الحمر والبقر وعظام الوحش صيدًا ذريعًا، غير أن كثيرًا من أهل العلم لا يطيب لهم أن يعتبروا الأسد فييا يضرى من السباع، محتجين لمذهبهم هذا بأنه حيوان لا تتصور تضرته، من أجل قوته وجراته وقساوته وشهامته وجهامته وشراسة خلقه، حتى لقد ضربت العرب به المثل في القوة والتجدة واليسالة وشدة الإقدام. والناس يعرفون أن من شرفه أنه صبور على الجوع قليل الحاجة إلى الماء، وأنه بذلك يخالف سائر السباع، كما يعرفون أنه لا يأكل من فريسة غيره، وإذا شبع من فريسته تركها ثم لم يعد إليها، ثم هو - لشرفه أيضًا - لا يشرب من ماء ولع فيه كلب، كما أشار إلى ذلك شاعر صرف نفسه عن هوى شاركة فيه اخرون، فذلك حيث قال.

وأتركُ حبها من غير بعض      وذاك لكثرة الشركاء فيه  
إذا وقع الذباب على طعام      رفعتُ يدي ونفسي تشتهي  
ومجتنب الأسود ورود ماءٍ      إذا كان الكلاب ولعن فيه

ومثل هذا القوي الجريء الشريف الأنوف، تستعصى تضرته فلا يصيد لغيره. وما وقع من ذلك - فيها ذكروا - إما أنه مبالغ فيه، وإما أن له أسبابًا خاصة لا تتوافر لكل أحد، ولا في كل أسد.

الذئب:

ومثل هذا الذي قاله أهل فن الصيد في الأسد، قالوا في الذئب، فذكروا أن ذلك القناص السوراني الحاذق الذي ضرى الأسد حتى اصطاد به حمر

(١١) روى المحقق أن هذا السوراني من قبيل علان، وأن حليمة ظئر نثى (صل الله عليه وسلم)

الوحش، بلغ من حذقه بتدريب الضواري وتضريرتها، أنه ضرى الذئب حتى صار مثل الأسد.

وبمثل ما ردوا القول بتضرية الأسد، ردوا القول كذلك بتضرية الذئب، محتجين لما ذهبوا إليه بأن ذلك أيضاً مما يستعصى أشد الاستعصاء، لأن في الذئب من صفات الأسد إثارة الوحدة والانفراد، ولأنه لا يعود إلى فريسة شبع منها أبداً، ولأنه شديد الحذر، حتى أنه لينام - إذا نام - بإحدى مقلتيه والأخرى يقظى، فيجمع بذلك بين النقيضين: اليقظة والنوم، لأنه شديد الحذر سيئ الظن بالأحياء، فذلك حيث يصفه الشاعر حميد بن ثور الهلالي فيقول:

ومث كنوم الذئب عن ذى حفيظة      أكلت طعاماً دونه وهو جائع  
ينام بإحدى مقلتيه ويتقى      بأخرى المنايا فهو يقظان هاجع

فقد شبه الشاعر حاله - في استنثاره بالطعام حتى بات شبهان ورفيقه جائع بحال الذى ينام بإحدى مقلتيه، فكما أن الذئب يصنع ذلك اتقاء للخطر وإثارةً للحذر، فكذلك يصنع الشاعر ما يصنع الذئب اتقاءً لحفيظة رفيقه<sup>(١)</sup>.

وأنت إذا قُدر لك أن تصطاد ذئباً ثم تضربه بالعصا والسيف حتى تقطعه أو تهشم رأسه فإنك لن تسمع له صوتاً حتى يموت، وهذا - كما ترى - في باب الصبر عجيب. ومن طبيعة الذئب أنه لا يطيق رؤية الدم، فلو أن إنساناً اجتمعت عليه ذئاب فتمكن من إدماء واحد منها، فإن سائرها تنب على الدامى فتمزقه مشغولةً بذلك عنه، فيجد السبيل إلى النجاة.

ومما يؤيد أن الذئب غير قابل للتضرية؛ ما رواه البيهقي عن الأصمعي

(١) كذلك كان يفهم بعض السيوخ هذا الشعر وإن كان مساق القصيدة في ديوان حميد لا يساعد

قال: دخلت البادية فإذا عجوز بين يديها شاةً مقتولة؛ وإلى جانبها جرو ذئب، فنظرت إليها فقالت: أنتدى ما هذا؟ قلت: لا، قالت: هذا الجرو أخذناه وأدخلناه بيتنا ورببناه، فلما كبر قتل شاتنا هذه، ثم انطلقت تنشد:

بَقَرْتُ شُوْبَهِي وَفَجَعْتُ قَلْبِي      وَأَنْتَ لَشَاتِنَا وَلَدُ رَبِيبُ  
عُذِّيتُ بِدُرْهَاهَا وَرَبَّيْتُ فِينَا      فَمَنْ أَدْرَاكَ أَنَّ أَبَاكَ ذَيْبُ  
إِذَا كَانَ الطَّبَاعُ طَبَاعُ سَوْءٍ      فَلَا أَدَبٌ يَفِيدُ وَلَا أَدِيبُ

ولست ترتاب - جنبك الله الشبهة - في أن الذئب بهذه الأوصاف تستعصى تضرته، فلا يمكن أن يصيد لغيره، وما روى من نبأ ذلك السوراني الحاذق الذي ضراه، فيما أنه مبالغ فيه، وإما أن له أسباباً خاصة لا تتوافر في كل ذئب يحاول تضرته إنسان.

ومما يؤنس لهذا الرأي - فيما نرى - أنك ترى العرب يقولون: ييَّاز لصاحب الباز، وصقَّار لصاحب الصقر، وفهَّاد لصاحب الفهد، وقِيَّال لصاحب الفيل، وكَلَّاب لصاحب الكلب، ولكنك لا تراهم يقولون: أَسَاد ولا ذَنَاب. فلو كانت تضرية الأسد والذئب من المعاريف عندهم لكتت قد وجدت هذا البناء اللغوي إلى جانب تلك الأبنية، فحيث لم تجده دل ذلك على أن هذه التضرية للأسد والذئب باب بعيد.

الفهد:

هو سَبَع الضواري، كما أن العقاب سبع الجوارح، وهو يُصَاد ثم يُؤنس لكي يُصَاد به.

وخير ما يقال حول الفهد ما ذكره ييَّاز العزيز بالله الفاطمي في كتابه البيزرة.

ومن أحب أن يصيد الفهد فليعلم كيف يصاد ويطب، وكيف يشد إذا صيد، وإلا فلو وقع يوماً على عشرة ولم يحسن طردها وصيدها ومداراتها إلى أن يصل بها إلى منزله - لم يلحق منها شيئاً.

والفهد لا يقدر عليه إلا في بيس، ويحتاج من يطرده أن يحفظ أثره، لأنه متى خفى عنه أثره لم يجده. فإذا صاده فليشد زوائده بخرقه بعد أن يطرح عليه كساء ويكمه ويجعله في غرارة يكون رأسه خارجاً منها لتلايموت من الحر وعندنا «بنوقرة» متعوذة لصيده. فإذا صار به إلى منزله فليعرض عليه الماء، فإن شربه، وإلا رشه على رأسه وأكتافه وخواصره وجوفه. ويعمل له قلادة فيها مدور لثلا يدور فتلتوى على عنقه ويكون فيها حجر جيد، ويضرب له سكة في مكان بارد يشده فيها إلى آخر النهار، ثم يأخذ من لحم خروف ثلاثة أرتال، ويقطعه صغاراً ويرسه في قصعة الفهد، ويحل الكمامة عن فمه، ويكون في جنبه، ويقدم له القصة، فإنه يأكل، ولا يزال هو يسحه فإذا كان وقت العشاء فليدخل به البيت برفق، ويجعل له قنديلاً في سقف البيت ليضئ عليه، ويسهر معه أكثر الليل بالتمسيح ليألفه، فإذا عمل به ذلك ليألى وأتس ووقف على قوائمه ودار حوالبه، فعند ذلك يحل مجره عند إطعامه، ويستجيبه بالقصة فكلما لحقه رعى له في القصة قليلاً من طعمه إلى أن يفرغ الطعام، ويعمل به ذلك أياماً حتى يتبعه مثل الكلب السلوقي، ثم يعتمد بعد ذلك فيبني له مثلاً في البيت على قدر الدابة وي طرح على المثال الطنفسة التي يطرحها على الدابة. وإذا أراد أن يطعمه على المثال استجابه إليه، فإذا صعد رعى له في القصة قليلاً من اللحم فإذا أكله أنزل القصة إلى الأرض، فإذا نزل إليها رعى له فيها من اللحم، فإذا أكله شال القصة إلى ذلك المثال المبني وصاح به، فإذا صعد إليه أشبعه، ولا يزال يعمل به كذلك مراراً حتى يثق بإجابته، فحينئذ فليقدم له الدابة، وتكن فرساً هادئاً

لا نفورًا، وليستجبه إليه. فإذا طلع على الفرس ولم ينفر وصار محكمًا، أخرج به إلى الصحراء وجعل طعمه فيها، وأحكم إجابته إلى الدابة حتى إنه يجرى الفرس جريًا، والفهد يجرى يطلبه. فإذا رآه كذلك فقد أحكم إجابته، ثم يطعمه يومًا ويفقه<sup>(١١)</sup> يومًا، وليكن حول قصته حلق لتكون له علامة إذا سمعها جاء إليها ولم يتأخر. فإذا أحكم ذلك، ولم يبق عليه في تعليمه شيء، فليخرج به إلى الصحراء ويأخذ معه غزالًا ويخله له. فإذا أخذه ذبحه وقدم القصة وفيها طعمه من اللحم الطرى وجعل فيها من دم الغزال، فإذا أشبعه ركب الدابة وأخذه. فإذا عمل به ذلك مرارًا فليطلب به غزالًا فإنه يصيده. فإذا شبع وتمهد عليه طلب به عجول بقر الوحش فإنه يصيدها إن ساء الله. وهذه صفة الضراء وما عندنا فيها.

ما يستحسن من صيد الفهد:

اعلم أن الصيد بالفهد ثلاثة أصناف: فمنها أن ينزل إلى الوحش ولا تعلم به، ومنها ما يكون بمجاودة، ومنها ما يخلى وتطرد له الوحش، وهي أبواب ثلاثة ملاح، وأحسنها ما كان بمجاودة.

وزعم أرسطو طاليس أن الفهد تولد من سبع وغر. ومن شأنه إذا وثب على طريدة لم يتنفس حتى يأخذها، فيحمي لذلك، وتقتل رثته من الهواء الذي حبسته. وسبيله أن يراح ريشها يخرج ذلك النفس، وتبرد تلك الغلة، ويشق له قلب الطريدة بعد تركيتها، ويطعمه ويسقيه ربه من الماء إن كان الزمان حارًا، ودون الرى إن لم يكن الحر شديدًا، ثم يبتغى به طريدة أخرى، ولا يكلف في يومه أكثر من خمسة أطلاق، وقد يصاد به في اليوم نحو

(١١) من قولهم غيب لباسية من لورد إذ شربت يومًا وتركت يوما

عشرة أطلاق، وإن لم يرح لم يفلح بعد ذلك.

ومن طباعه الحياء، وكثرة النوم والغضب. وليس يعلم أنه عاظم<sup>(١)</sup> أنتى وهو فى يد الإنسان، وقد عنى بمراعاة ذلك واجتهد فيه فلم يعرف منه، والأسد كثيراً ما يفعله.

وذكر بعض الفهّادين العلماء بصيدها وطباعها أنه يسمح الفهد والفهدة ويمر يده على جميع أعضائها فتسكن لذلك حتى تصيب يده موضع بعرها فتقلق وتعطف عليه لتعض يده. ونومه يضرب به المثل، قال بعض الشعراء يصف نومه:

فأما نومه فى كل حين فعين الفهد لا تقضى كراها

وقال بعض الكتاب - وقد عابه قوم بكثرة النوم ونسب إلى الإخلال بأعماله والتقصير فى أموره:

رقدت مقلتى وقلبى يقظاً ن يحبس الأمور جساً شديداً  
يُحمد النوم فى الجواد كما لا يمنع الفهد نومه أن يصيدا

وله سبيلان فى صيده.. سبيل ما كان فيه استخفاء ويطلق عليه الدسيس، وسبيل ما كان ظاهراً واضحاً ويطلق عليه المصحر، وسبيل الفهد فى صيده دسيساً، غير سبيله فى صيده مصحراً، وهو أبله جداً لما يظهر منه فى تعلمه لسر شخصه وخفاء سره، ويرسل على بُعد من الطريدة بعد أن يتشوفها، ويتلطف لإرساله من غير قلق، فتراه يمر مثل عناق<sup>(٢)</sup> الأرض رافعاً يداً

(١) المعاظلة فى السباع كالسائفة فى الطيور. ركب بعضها بعضاً للسعاد.

(٢) عناق الأرض فى حديث قنادة، دابة وحشية أكبر من السور وأصغر من الكلب تصيد كل

شئ حتى الطير.

وواضحاً أخرى. على وزن وقدر متناسب، مادامت الطباء ناكسة رموسها ترتعى، فإذا شالها وخاف منها التنبه عليه، أمسك على الصورة التي تنتهى به الحال إليها، لا يقدم ولا يؤخر، ولا يرفع الموضوعه، ولا يضع المرفوعة، وما يزال على ذلك حتى يظفر بما يريد.

والمسن من الفهودة إذا صيد كان أسرع أنساً وأقبل للتأديب من الجرو الذى يربى ويؤدب، لأن الجرو يخرج خباً مخادعاً حبيثاً، والمس من يخرج على التأديب صيوداً غير خب<sup>(١)</sup>، والأنتى أصيد، وكذلك عامة إناث الجوارح، وهو من الحيداد الأسنان، ويدخل بعضها فى بعض، وكذلك الكلب والأسد.

وإذا أتقلت الأنتى بالحمل؛ حن عليها كل ذكر يراها فواساها من صيده، فإذا قاربت الولادة هربت إلى موضع كانت قد أعدته لذلك.

ومما لا يسع التفاضى عنه وصف ابن المعتز فهذه فى قصيدة طويلة نكتفى منها بالأبيات التالية:

ولا صيد إلا بوثابة	تطير على أربع كالغذب <sup>(٢)</sup>
فبان أطلقت من قلادتها	وطار الغبار وجدّ الطلب
فزوبعة من بنات الرياح	تريك على الأرض شيئاً عجب
تضم الطريد إلى نحرها	كضمّ المحبة من لا يجب <sup>(٣)</sup>

هذا.. والعرب تشتق من كلمة فهد فعلاً، فتقول: فهد الرجل يفهد فهداً،

(١) الحب المخادع

(٢) الغذب جمع غدبة، وهى المنيوط التى ترفع بها الموازين، شبه بها الشاعر أرجل الفهدة فى الدقة والشحول

(٣) فى هذا البيت مبالغة فى وصف تشبهها بصيدها، لأن صم الحب من يعلم أنه لا يساعده على المحبة، أشد توثقاً وراماً.

كفرح يفرح فرحًا، بمعنى تخلّقُ بصفات الفهد؛ وكذلك يشتقون من كلمة أسد، فيقولون: أسد الرجل يأسدُ أسدًا، بمعنى أنه تخلّقُ بخلق الأسد.

وفي «صحيح البخارى»: عن عائشة - رضى الله عنها - قالت: جلس إحدى عشرة امرأة فتعاهدن وتعاقدن إلا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئًا.. (الحديث)<sup>(١)</sup>. فذكرت - رضى الله عنها - حديث زوجة تدعى كبشة تقول فيه واصفة زوجها: «زوجى إن دخل فهد، وإن خرج أسد، ولا يسأل عما عهد».

فها هنا ثلاثة أوصاف فيها مدح للزوج:

أحدها: أنه إذا دخل بيته دخل بخير كثير، لأن الفهد كثير الكسب، فإنهم يضربون به المثل في ذلك، فيقولون: أكسب من فهد، والفهود الهرمة من شأنها أنها تجتمع على فهد منها ذى فتوة يتصيد عليها كل يوم حتى يشبعها، فكأن هذه المرأة في وصفها زوجها تقول: إنه إذا دخل المنزل، دخل بالكسب لأهله الذين لا يقدرون عليه، كما يجيء الفهد لمن يلوذ به من الفهود الهرمة.

وثانى الأوصاف: أنه إذا خرج من البيت أسد ففعل كما يفعل الأسد في جراته وشجاعته.

وثالثها: أنه لا يسأل عما عهد، تعنى أنه يتعاقل عما يعهده في بيته من ماله فلا يفقده لتمام مروءته وكمال كرمه.

وأول من اصطاد بالفهد - فيما يذكر صاحب الصبح - كليب بن وائل،

(١) الحديث في «صحيح البخارى» ومع ذلك لا يكاد التأمّل أن يطمنن إليه، لأن فيه أوصافاً لأحوال بين الأرواح، وقد نهى رسول الله ﷺ عن إداعة ما يكون بين الزوجة وزوجها.

وأول من حمّله على الخيل يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وأكثر من اشتهر باللعب به أبو مسلم الخراساني.

### الكلب:

قال الدميري: الكلب حيوان معروف، وربما وُصف به فليل للرجل كلب وللمرأة كلبية. وِكَلاب اسم أحد أجداد النبي ﷺ.

وهو إما منقول من المصدر الذي هو في معنى المكالية نحو كالتُّ العدو مكالية وكلابًا، وإما أنه جمع كلب، وسموه بذلك طلبًا للكثرة، كما سما سباعًا وأثمارًا، جمع سبع وثمر.

وقد قيل لأبي الدقيس الأعرابي: لم تسمون أبناءكم بِشَرِّ الأسماء مثل كلب وذئب، في حين تسمون عبيدكم بأحسن الأسماء مثل مرزوق وبلال ورياح؟ فقال: إننا نسمي أبناءنا لأعدائنا، وعبيدنا لأنفسنا<sup>(١)</sup>، وكأنهم إنما قصدوا بذلك التفاؤل بمكالية العدو وقهره.

والكلب حيوان شديد الرياضة كثير الوفاء.. وهو: لا سبع ولا بهيمة، حتى كأنه من الخلق المركب، لأنه لو تم له طباع السبعة ما ألف الناس، ولو تم له طباع البهيمية ما أكل لحم الحيوان.. لكن الحديث أطلق عليه بهيمة، فقد روى مسلم أن النبي ﷺ قال: «بينما امرأة تمشي بقلاة من الأرض، اشتد عليها العطش، فنزلت بثراً فشربت ثم صعدت فوجدت كلباً يأكل الثرى من العطش، فقالت: لقد بلغ بهذا الكلب مثل الذي بلغ بي،

(١) يعنى: هتف بأبنائنا إلى أعدائنا: اذهب إليه يا كلب، يا أسد، وندعو عبيدنا إلينا. هلم يا رياح أقبِل يا بلال.

فنزلت البئر فملأت حنفها وأمسكته بفيها ثم صعدت فسقته فشكر الله لها ذلك وغفر لها». قالوا: يا رسول الله أولنا في البهائم أجر؟ قال ﷺ: نعم في كل كَبِدٍ رطبة أجر.

والكلاب نوعان: السلوقية، وهي من أحرار الكلاب وعتاقها، وغير السلوقية، وربما صادت هذه كما تصيد السلوقية، ولكنها تقصر عنها بعيداً. وسلوق التي تُنسب إليها هذه الكلاب، بلد من أرض اليمن.

وفي طبع الكلب الاحتلام، وأثناء تحييض، وفي الكلب من اقتفاء الأثر وشم الرائحة ما ليس لغيره من الحيوانات. والجيفة أحب إليه من اللحم الغريض. وبينه وبين الضبع عداوة شديدة، حتى إنه إذا كان في مكان عالٍ ووطئت الضبع ظله في القمر، فإنه يرمى بنفسه عليها مخذولاً فتأخذه فتأكله.

ومن طبعه أن يحرس ربه ويحمي حرمه شاهداً وغائباً ذاكراً وغافلاً يقظاناً ونائماً. وهو أيقظ الحيوان عيناً في وقت حاجته إلى النوم، وإنما غالب نومه نهراً عند الاستغناء عن الحراسة. وهو في نومه شديد الخذر حديد السمع، فإذا نام كسر أجنان عينيه دون أن يُطبقها، لخفة نومه.

ومن عجيب طباعه أنه يُكرم الحلة من الناس وأهل الوجاهة، فلا ينبح أحداً منهم، وربما حاد عن طريقه، وإنما ينبح من الناس الدنس الثياب، والضعيف الحال. ومن طباعه البصصة والترضى والتودد والتألف بحيث إذا دعى بعد الضرب والطرود رجوع، وإذا لاعبه ربه عضه العض الذي لا يؤلم، مع أن أنيابه لو أنشبهها في الحجر، لنشبت. ويقبل التأديب والتعليم، حتى لو وضعت على رأسه مسرجة وطرح له مأكول، لم يلتفت إليه مادام على تلك الحال. فإذا أخذت المسرجة عن رأسه، وثب إلى مأكوله وثباً. والسلوق منه

إذا عاين الظباء قريبة أو بعيدة، عرف المقبل من المدير والذكر منه والأُنثى، ويعرف الميت من الناس والمتماوت.

وفي كتاب «فضل الكلاب على كثير من ليس الثياب» ذكر محمد ابن خلف المرزبان عن جده قال: «رأى رسول الله ﷺ رجلاً قتيلاً فقال: ما شأنه؟ قالوا: إنه وثب على غنم بنى زهرة فأخذ منها ساة فوثب عليه كلب الماشية فقتله، فقال رسول الله ﷺ: «قتل الرجل نفسه وأضاع ديه وعصى ربّه وخان أحاه وكان الكلب خيراً منه».

قال أهل الفن: وخيرُ الكلاب ما كان لونه يذهب إلى لون الأسد بين الصفرة والحمرة، ثم البيض إذا كانت عيونها سوداً، والأبيض أفره، والأسود أصبر على الحرّ والبرد.

وستحب فيه أن يكون قصير اليدين طويل الرجلين، نائق الزور، غليظ العضدين، مستقيم اليدين، منظم الأظافر، عريض ما بين مفاصل الأعطاف. وإذا ولدت الكلبة واحداً كان أفره<sup>(١)</sup> من أبويه، وإن ولدت اثنتين كان الذكر أفره من الأنثى، وإن ولدت ثلاثة فيها أنثى في شبه الأم، كانت أفره الثلاثة، وإن كان في الثلاثة ذكر واحد كان أفرهها، وإذا أُلقيت الجراء وهي صغار في مكان ندى، فأياها مشى على أربع فهو أفره، وإناث الكلاب أسرع تعلماً من الذكور وأطول أعماراً، حتى إنها لتعيش عشرين سنة.

ومن خصائص الكلب أن رأسه كله من عظم واحد، وإذا عاين الظباء - بعيدة كانت أوقرية - عرف المعتل وغير المعتل منها، وعرف العز من

التيس، فإذا أبصر القطيع لم يقصد إلا التيس، وإن علم أنه أشد حضرًا<sup>(١)</sup> وأبعد وثبة، وترك العنز وهو يرى ما فيها من نقصان حضرها وقصر خطوها، ولكنه يعلم أن التيس إذا عدا شوطاً أو سوطين حقب ببوله، وكل حيوان يعرض له مع شدة الفزع إما سلس البول والتقطير وإما الأسر والحقب<sup>(٢)</sup>. وإذا حقب التيس لم يستطع البول مع شدة الحض، فيقل عدوه، ويقصر خطوه، ويعتريه البهر<sup>(٣)</sup> حتى يلحقه الكلب.

والعنز إذا اعتراها البول، فإنها - تسعة مسيلها - تحذف ببولها وترمي به مقطعاً، والكلب يعرف ذلك طبعاً لا بحجة، دون أن يحتاج إلى معاناة أو تعليم أو تدريب.

وأنت تخرج مع الكلب إلى الصيد في يوم الجليد والثلج وهما متراكان على الأرض، لا يثبت عليها قدم ولا خف ولا حافر ولا ظلف، فيمضي الكلب، ومعه الإنسان العاقل، والصيد المجرب، فلا يدرى أين موضع جحر الأرنب من جميع بسيط الأرض، ولا موضع كناس الطيب، ولا مكو الثعلب وجحره، ولا غير ذلك من موالج وحوش الأرض، فيلتفت الكلب بين يدي صاحبه وخلفه، وعن يمينه وشماله ويتشم ويتشم، ويتبصر، حتى يقف على أفواه تلك الحجرة فيثير ما فيها، وذلك أن أنفاس الوحش المستكنة فيها، وبخار أجوافها وأبدانها وما يخرج من الحرارة المستكنة فيها في عمق الأرض، تذيب ما لاقاها من قم الجحر من الثلج حتى يرق ذلك، وهو خفي غامض، لا يقع عليه قانص ولا راع ولا قائف ولا فلاح.

(١) الحضر عدو دو وب.

(٢) الأسر والحقب - حقبس البول.

(٣) لبهر - تبع النفس من الإعياء.

وللكلب في الإصعاد خلف الأراب في الجبل الساهق، من الرفق وحسن  
الاهتداء مالا خفاء به. ومن دهائه أنه لا يخفى عليه الميت والمسارت في  
تشممه.

ويقال: إن المجوس لا يدفنون ميتاً لهم حتى يدنوا منه كذباً يشممه،  
فتظهر لهم منه في تشممه إياه علائمه يستدلون بها على حياته أو موته، وكذلك  
لا يجوز عليه حيلة الثعلب في التماوت، وإن كان الثعلب لا يفعل ذلك مع  
الكلب، ولكن الثعلب يتماوت للغراب وغيره، نافعاً بطئه، فإذا دنا منه قبض  
عليه، وهو إنما يتماوت للغراب ولا يتماوت للكلب لعدم الحاجة إلى هذا  
التماوت من حيث كان تماوته للغراب وسيلة اقتناصه واقتراضه، وهذا في  
الكلب غير ميسور له.

والكلب - على ما ذكر مالك والزهرى وداود - طاهر، وإنما يغسل الإناث  
من ولوغه تعبدًا، وكذلك حكى هذا عن الحسن البصرى وعروة بن الزبير،  
محتجين بقوله تعالى: ﴿ فَكَلُوا مما أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ ﴾، ولم يذكر غسل موضع  
إمساکها، كما احتجوا بذلك بحديث ابن عمر - رضی الله تعالى عنها -  
قال: « كانت الكلاب تقبل وتدبر في مسجد رسول الله ﷺ وتبول، فلم  
يكونوا يرشون شيئاً من ذلك » على ما ذكر الإمام البخارى في الصحيح.

ومن خصائص الكلب الجليلة فيه أن كل الحوارج تعمل لأنفسها  
إلا الكلاب، فإنها تجرى على خلق في الاكتساب لأصحابها، فصاحب الكلب  
مدين لكلبه، وليس كليه مدينًا له على ما كان ينبغي أن يكون، وهو المعنى  
الذى صوره أدق تصويره الحسن بن هانئ، حيث قال:

أنت كلبٌ أهله في كده      قد سعدت جدودهم بجده<sup>(١)</sup>

(١) يقول: نه يصف الكلب الذي سعد أهله في بعه وجهده، فعظمه من حظه.

فكل خير عندهم من عنده يظلُّ مولاه له كعبده<sup>(١)</sup>  
 بيت أدنى صاحب من مهده وإن عرى جلاله ببرد<sup>(٢)</sup>  
 ذو غرة محجل بزنده تلذ منه العين حسن قده<sup>(٣)</sup>  
 يا حسن شذقيه وطول خده تلقى الظباء عنتاً من طرده<sup>(٤)</sup>  
 تشرب كأس حتفها من شده يصيدنا عشرين في مرده<sup>(٥)</sup>  
 يالك من كلبٍ نسيج وحده<sup>(٦)</sup>

ومما لا ينكره منكر على أهل الذوق البياني، ما أشار إليه أهل الفقه بأساليب القرآن من التعبير عن كلب أهل الكهف، تعبيراً يشعر بالصحة وليس بالتبعية، فكأن الكلب واحد منهم وإن كان خادماً لهم وحارساً، فذلك قول الله تعالى ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ وذلك أن في التعبير برابعهم وسادسهم وثمانهم معنى فاضلاً لا يقوم به التعبير الذي يؤثر كلمة مع، حتى يقول: ثلاثة معهم كلبهم أو خمسة معهم كلبهم أو سبعة معهم كلبهم. وليس يخفى هذا الفرق بين الأسلوبين على ذي بصر بصناعة الكلام.

ثم إن الكلاب إخوة الخيل، فما يستجد منها يستجد منها. ومالا، فلا. وقد ذكروا في هذا الصدد أن المأمون قال لبعض أصحابه: امض إلى البادية فابتع

(١) فم عنده من خير عندهم منه، ومن ها ترى سيده كأنه عبد له  
 (٢) فهو بيت قريباً من مرقد برأ به وحرصاً عليه، فإذا تعرض للبرد غطاه بما هو محتاج إليه.  
 (٣) وهذا الكلب ذو غرة في وجهه ومحجل في رنده، ومن أجل هذا تلذ منه العين لحسن قوامه  
 (٤) فما أحسن شذقيه مع طول خده، وما أعنته للظباء حين يطردها  
 (٥) فهو هذا الطرد يذيعها الموت من شده عدوه وراهها في نساط شديد يمكنه من إن يصيد من الظباء عشرين. المرقد مثل معتر لطرفة نشاطاً.  
 (٦) فكأن الله تعالى قد خلق هذا الكلب وحده دون أن يشركه في أخلاقه كلب مثله.

منها خيلاً تستجيدها. قال الرجل: يا أمير المؤمنين لست بصيراً بالخيل، قال المأمون: أفلمت بصيراً بالكلاب؟ قال الرجل: نعم. قال: فأبصر كل ما تتوخاه في الكلب المنجب الفاره والتمس مثله في الفرس.

ومن أعجب شيء في هذا الباب ما ترعمه العرب من أن شرب دماء الملوك والأسراف تشفى من الكلب على ما يقول الشاعر العربي مادحاً:

أحلامكم لسقام الجهل شافية كما دماؤكم تشفى من الكلب

يعنى أن ما يتمتع به هؤلاء الأسراف من نعمة العقل والحلم يشفى من مرض الجهل، كما يشفى شرب دماؤهم من مرض الكلب.

والناس يختلفون في المراد من ذلك. فيذهب قوم إلى أن الشعراء إنما كانوا ذلك إجباراً عن حقيقة معروفة، وليس إغراءً بالملوك أو الأسراف وعريضاً على قتلهم، وقال قوم: إنما المعنى أن قتل الأسراف يشفى من الثأر، فالإنسان إذا كان له في قوم ثأر، لا يشفى صدره إلا بقتل الأكفأ ومن هم أعلى منزله من قتيله.

على أن الجاحظ - رحمه الله - تردد في قبول المعنى، وسبب هذا التردد ما نقله من قول الفرزدق:

ولو تشرب الكلبى<sup>(١)</sup> الأمراض دماءنا شفتها وذو الخبل الذى هو أذنف

فذكر الخبل والذنف الذى هو المرض، يشير إلى أن المراد إنما هو شرب دم الملوك والأسراف، وليس الثأر المنيم، ثم مضى رحمه الله في هذه الطريق يروى لعاصم بن القرية الشاعر الجاهلى قوله:

(١) لمرضى يداء الكلب.

وداوتته مما به من مجنة<sup>(١)</sup> دم ابن كهال والنتاسي واقف

فيقرر في هذا الشعر أنه داوي المريض بالكلب بدم ابن كهال مع وجود الطبيب المعالج، وذلك يشعر بأن المراد هو شرب الدم للشفاء من الجنون، وليس الثأر المنيم، كما احتار ذلك الفاطمي وذهب إليه بعض أصحاب الجاحظ.

وهنا أمران ذكرهما الفاطمي في كتابه لا يجمل بمن يتحدث عن الكلب أن يتجاوزهما دون أن يشير إليهما:

أحدهما: قوة سمعه.

وثانيهما: قوة بصره.

فأما قوة سمعه، فبرهانها حوار بين عالين سأل فيه أحدهما صاحبه عن المعنى في اعتبار الناس المسير على الأنهار الجامدة بالكلب، فذكر أن ذلك لصلاية وطء الكلب وثقله، يعني أن تجمد الأنهار إذا لم يكن شديد التماسك قوياً فإنه ينهار تحت صلاية وطأة الكلب وثقلها، فيكون ذلك إنذاراً لصاحبه حتى لا يواصل سيره، ولكن السائل - وكان أعلم من المسئول بخصائص الكلاب - لم يرض هذا الجواب حتى قال: لا، ولكن ذلك لقوة حسه وسمعه، وأنه إن سمع للماء خريراً من تحت لم يجيز منه.

وأما قوة بصره فبرهانها شعر أنشده الفاطمي الشاعر يدعى (عبد ربه):

وأشرفُ بالقور اليقاع لعلني أرى نار ليلي أو يراى بصيرها

يقول: إنه يتسنى الجبل الصغير المتقطع عن الجبال لكي يرى نار ليلي أو يراه بصيرها، يعني كلبها، فذلك برهان قوة بصره.